المحاضرة السابعة: الرواية التاريخية

1-مفهوم الرواية التاريخية.

تعد الرواية التاريخية أكثر أنواع الرواية رقيا، فهي تسمو بموضوعاتها لتحقيق أهداف ذات أهمية بالغة، إذ تسعى لإحياء وبعث ماض تليد لقراءة الحاضر والمستقبل، ويكاد يجمع أغلب نقاد نظرية الأدب أنّ هذا الجنس الروائي يعتبر دخيلا على الأدب العربي، منقولا عن الأدب الأوروبي، رغم محاولة الروائي العربي تأصيله ببعث الماضي والتراث العربي، لكنه في واقع الأمر يجاري موضة غربية أوروبية، ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وقد أعلن "جورج لوكاتش" أن الرواية التاريخية نشأت في مطلع القرن التاسع عشر، لكن يمكن العثور على روايات ذات موضوعات تاريخية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويستطيع الشخص أن يعتبر الأعمال القروسطية المعدة للتاريخ الكلاسيكي مقدمات للرواية التاريخية.

فالرواية ابتداء تقوم على بنية زمنية تاريخية، تتشخص في فضاء تاريخي، يمتد من الماضي وحتى اللحظة الراهنة أو القادمة، تضيئه أحداث تحييها شخصيّات إنسانية فنيّة، حيّة وكاملة.

والرواية تعمل على استكناه وحدة الجوهر الإنساني الثابتة عبر امتداد التاريخ، في سبيل التقاط كل ما هو إنساني وأصيل وصادق، وهي إذ ذاك تستدخل نظرة علوم الاجتماع والتاريخ والفلسفة وعلم النفس لتدرس من خلالها أعماق النفس البشرية وكينونتها التاريخية والاجتماعية.

2-علاقة الرواية بالتاريخ:

إنّ الاعتماد على التعاريف المخصصة لكل إسناد نظري يبحث في علاقة الرواية بالتاريخ من شأنه أن يقود الباحث نحو إعادة التفكير في إشكال كبير يخص علاقة الأدب بالتاريخ وهذا يجعلنا نطرح عدّة أسئلة من مثل: هل الرواية التاريخية هي التي تعتمد الحدث التاريخي مرجعيّة للحدث الروائي؟ وبالتالي فإنّ في هذه الحالة مرجعيتين: مرجعية حقيقية متّصلة بالحدث التاريخي، ومرجعية تخيلية مقترنة بالحدث الروائي.

ليصل الأديب في كتابة الرواية التاريخية إلى هذا الغرض من الفائدة والمتعة عليه أن يقرأ التاريخ "قراءة تعمر نفسه بأحداثها وتمتلئ مشاعره بمواقفها ،وسوف يتأثر بها تأثراً يملك عليه نفسه ويستولي على خاطره، وبذلك يندفع للترجمة عن مشاعره والتعبير عن أحاسيسه ،ويصوّر لك نفسيته حينما

لامسته تلك الشرارة من الذكرى مما يجعل إنتاجه صورة صادقة من نفسه وفكره وترجمة عن أحاسيسه وعواطفه حيال تلك الحادثة أو البطل الذي عمر نفسه وملأ فؤاده وملك عليه خاطره "، فالتاريخ في صورته المعروفة ما هو إلاّ حقائق مجرّدة لها وجود محدد، وقد أعدت سلفاً وبمجرد دخول هذه الحقائق التاريخية في إطار العمل الأدبي يتحول العنصر التاريخي إلى عنصر أدبي. وفيما يتعلّق بالتزام الروائي حقائق التاريخ، يقول لوكاتش: "يجب أن تكون الرواية أمينة للتاريخ "

والناقد هنا يرى أمرين، يتمثل الأول في ضرورة الالتزام بحقائق التاريخ الكبرى دونما تغيير أو تزييف، فيما يقوم الأمر الثاني على جواز استيعاب الرواية التاريخية للبطل الروائي غير الحقيقي، والحبكة الفنية المتخيلة على خلفية صيرورة الأحداث التاريخية الحقيقية.

والروائي في استلهامه للتاريخ يعيد ترتيب الأشياء وتوزيع الأدوار كما يريد، تأصيلاً لرؤيته التي يقيم بناءها في معماره الروائي الجديد.

إن التعامل مع التاريخ من حيث هو مكون روائي لا يعني اعتماد التاريخ بديلاً للتخيل، وكأنّ الرواية التاريخية بتكامل مستويات البناء والتجنس لا تكمن في طبيعة الأحداث التي تعرض لها، بل في الطريقة التي تقدمها بها"، والعلاقة بين الرواية والتاريخ هي علاقة يتم في ضوئها تمثل البؤرة السردية: الشخصية، الزمن، الفضاء....ولذلك، لا ترتبط الرواية بالتاريخ لتعيد التعبير السمة السردية للكتابة الروائية والتاريخية وتدقيق مجال الاشتغال والتفاعل والتنويع عما قاله التاريخ "بلغة أخرى"، واعتماد الرواية التاريخية على الحدث التاريخي لا يعني أنها تعيد كتابة التاريخ بطريقة روائية فحسب بل قد ترتبط الرواية بالتاريخ للتعبير عمّا لا يقوله التاريخ.

على الرغم من حبّ الإنسان الشديد للماضي بكل ما فيه من تفاصيل وخبرات . فالماضي ملك التاريخ ،والتاريخ حافظه ، نجده غالباً ما يعزف عن قراءة كتب التاريخ ،ويمل الحياة بين صفحات هذه المراجع المملوءة بالحشود الهائلة من الأحداث المملة والأخبار المتشابهة ،لاسيّما أنّ أكثر المؤرخين قد يجيدون جمع الأخبار ومقارنتها والاستنتاج منها ،إلاّ أنّهم يقومون بهذا في إطار علمي جاف، ويعرضونها عرضاً قد يكون مملاً يغري النّاس بالزهد في كتب التاريخ والوقوف على حوادثه وأخباره .والعنصر الأدبي لازم في كتابة التاريخ ،فإذا أبعد من ناحية احتال على الدخول من منفذ آخر .والشعور بالحاجة إلى هذا العنصر الأدبي هو الذي ساعد على ميلاد الرواية التاريخية

3-نشأة الرواية التاريخية:

تنسب البداية الفعلية للرواية التاريخية في الغالب إلى الكاتب الأميركي "ستيفن كرين" برواية "شارة الشجاعة الحمراء"، ولكنها كانت تفتقر لبعض العناصر الروائية الشكلية والضمنية، فتكامل هذه العناصر الفنية نوعا ما كان عند "والتر سكوت" الأسكتلندي، الذي يعد أبو الرواية التاريخية برواية "ويفرلي" سنة 1814. بعدها ألف قرابة خمس وخمسين رواية تاريخية، وقد سن لمن بعده أصولا فنية ظلت كتقاليد متبعة للرواية المتكئة على التاريخ في مختلف الآداب الأوروبية والعربية أيضا، أساسها الصدق والحبكات الفجائية التي أرست دعائمها قبل سكوت قصص الرومانسية والفروسية، كان "والتر سكوت"، كما يذكر "غنيمي هلال"، يتخير أبطاله من العصور الوسطى، ويمازجها بشخصيات خيالية مختلفة نابضة بالحياة، غير متعارضة مع العصر التاريخي الذي يصفه، وبارعا في تصوير وتجسيد عادات وتقاليد وملابس ومقومات ذلك العصر متحايلا على حقائق التاريخ.

وكما يقول "والتر سكوت": «ليس معنى بساطة الشخصيات أنّها تخلو من النفع والفنية، لأنها تؤدي دورا حيّويا وفنيا (...) وهي شخصيات غير تاريخية عادة يستخدمها الروائي في عمله الفني لتؤدي دورا يستمد أهميته من السياق الروائي الذي أختاره».

تزامنت روايات "والتر سكوت" مع الكتابات التاريخية لمؤرخي القرن الثامن عشر، منهم "فولتير" و"جيبون" اللّذان رغم إجادتهما وتجديدهما لكتابة التاريخ كان ينقصهما فهم نفسية العصور التي يصفونها وافتقارهما للحاسة التاريخية التي تجعلهما يعتقدان أنّ الإنسان هو نفسه في جميع العصور بغض النظر عن التطورات التي تطرأ على العصر والتي تنعكس عليه.

هذه النقائص في الكتابات التاريخية جعلت كتابة التاريخ مملة رتيبة، عبارة عن توال لأحداث مكررة في كل العصور مع اختلاف الأبطال: هزائم وانتصارات لا غير، وقد خطى سكوت بالتاريخ خطوات إلى الأمام، وإن كان قد حرّف بعض حقائقه، كما يذكر النقاد، إلا أنّه أدخل العنصر الفني والمنهج الأدبي في عرض أحداث التاريخ وأبطاله، ومختلف التغيرات التي تطرأ عليهم والتي تشمل العقائد والأفكار والأخلاق والعادات.

وصوّر سكوت التاريخ وجسده بطريقة فنية أشدّ تأثيرا من كتب التاريخ الجافة، حتى ساد اعتاد النقاد والباحثين أنّ روايات سكوت أقرب للحقيقة التاريخية من كتب المؤرخين، وقد أثر على مؤرخي تلك الفترة تأثيرا بالغا حيث حذوا حذوه، وطفقوا يصورون أحداث التاريخ ويعيدون بناءها بقليل من الخيال غير الجامح، منهم "تيري" و"سيسموندي" و"برسكوت".

وقد وجهت انتقادات كثيرة لوالتر سكوت أشهرها التي وجهها له تين "TAINE" بتزييفه للحقائق التاريخية، الذي يقول في نقده: «كل هذه الصور من الماضي البعيد والتي يعرضها صور زائفة، ليس فيها صحيح سوى الملابس والمناظر والمظاهر الخارجية».

ومن أهم التغيرات التي مست الرواية التاريخية وتقاليدها ما نادي به "ألفريد ديفني" في فرنسا سنة 1825، بروايته 5 مارس، فهو بجعل الشخصيات التاريخية في المحل الأوّل، في حين جعلها والتر سكوت في المقام الثاني والشخصيات الخيالية في المقام الأوّل، لكي لا يتقيد بحقائق التاريخ. ويرى "ديفني" أنّ ذلك يجعل الشخصيات التاريخية تتحرك على الأفق البعيد، ويكون محور الرواية الشخصيات الخيالية.

وأضاف "بلزاك" للرواية التاريخية ما يسمى وصف تاريخ العادات، حيث أصبح التاريخ هو المجتمع، وبهذا يريد أن يسمو بالرواية إلى قمة التاريخ الفلسفية، بإعطاء الصورة الكاملة لمدينة ما، كما كتب أيضا في فرنسا" ألكسندر ديماس" الأب التاريخ الفرنسي عام 1844، ابتداء من عصر "لويس الثالث عشر" حتى عودة الملكية، وحقق نجاحا منقطع النظير ومرد ذلك، كما يقول "فان تيغم"، يعود لإحيائه الماضي الفرنسي وتمجيده لانتصاراته، رغم عدم التزامه بالصدق التاريخي، وعدم دقته في التصوير مثل سكوت.

ويرى بعض النقاد أنّ "ديماس" يجعل التاريخ نصب عينه قبل فكرة الرواية، التي لم يتخذها إلا لمجرد سرد الحادثة التاريخية، فينسى أنه روائي ويتقمص أحيانا شخص المؤرخ، ربما لكونه كان يستعين في وضع رواياته وكتابة فصول الحادثة التي يختارها بالعديد من الكتاب الناشئين، يختص كل منهم بكتابة فصل من فصولها.

وبدأ الروائيون في أوروبا يتجهون إلى هذا النوع الروائي المهم، لما فيه من إحساس بالروح القومية الأوروبية، وليبعثوا في الذاكرة الشعبية المعاصرة تلك الظلال العظيمة والتذكير باللحظات المجيدة

في تاريخ أممها، فظهر في روسيا "تولستوي" برواية "الحرب والسلام" وفي إيطاليا "ألكسندرو مانزوني" برواية "المخطوبين" عام 1923، مستحضرا أحداثا إيطالية تعود لقرنين ولعصور روما القديمة.

وشهدت حقبة الثلاثينات من القرن العشرين أعمالا روائية رائدة نذكر منها ما جاء على يد الروائيين "كينيث روبرتس" و"روبرت جريفر" و"فورستر"، وبعد الحرب العالمية الثانية تطور هذا الإنتاج الروائي التاريخي فظهر "هوب متز" سنة 1949 برواية "المحارب الذهبي" و"ماري رينولت" سنة 1950 برواية "الملك يجب أن يموت"، والعديد من الروائيين نذكر منهم: "مارجريت يورنيسار"، "زوي أو لدنبرج"، و"برسكوت" في "رجل فوق الحمار" سنة 1952، ومع نهاية القرن العشرين ظهر "امبرتو إيكو" الإيطالي برواية "اسم الوردة" و"إيريكا فاجنر" الكاتبة والصحافية التي نالت جائزة البوكر سنة 2000 عن رواية "القاتل الضرير".

المراجع:

1- سليمة بالنور، الرواية التاريخية: بين التأسيس والصيرورة، مجلة عود الند، الجزائر،2014

2- جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، 1986

3-عبد الله الخطيب، مدخل إلى الرواية التاريخية،http://www.odabasham..net